

كتاب الميلاد البتولي والظهور الإلهي

تعديل جذري في تاريخ يوم الاحتفال بعيد الميلاد

لقد صدرت الطبعة الأخيرة من كتاب: الميلاد البتولي والظهور الإلهي، في إبريل سنة ٢٠١٩م، لا تحوي شرحاً دقيقاً ليوم الاحتفال بعيد الميلاد، إذ اكتشفت الخلل الذي تسبب في ذلك والذي وقع فيه الأقباط، وذلك بسبب ترجمة غير دقيقة لكتاب الدسقولية العريية، الذي تُرجم في القرن الحادي عشر الميلادي، وذلك حين أضاف المترجم من عنده عبارة لم تكن موجودة في الأصل اليوناني الذي ينقل عنه وهو كتاب المراسيم الرسولية الذي يعود إلى القرن الرابع الميلادي. وهو ما تجده مشروحاً في السطور الواردة في هذا التنويه.

وقد أُجريتُ تعديلاً على بعض فقرات من كتاب الميلاد البتولي، لتصحيح هذا الخطأ. وبيانها كما يلي:

(ص ١١١)^(١)

يشرح يوحنا بن سباع ذلك الأمر في القرن الثالث عشر الميلادي فيقول: ”... ثم يتلوه عيد الميلاد المجيد، وهو يومان، الثامن والعشرين من كيهك، ويوم التاسع وعشرين. وذلك لأن شهد السنكساري بتعيين اليومين معاً، لأن المسيح له الجسد وُلد في الثامن والعشرين، وملا نوره المغارة فلم ينظروا. (ثم) روي في التاسع والعشرين طفلاً ملفوفاً بالخرق ... ولذلك عيّدوا له اليومين معاً ... ويجب أن يكون له برموني، وهو صوم يوماً واحداً قبله إلى المساء ... ويكون القدّاس فيه (أي في العيد) سحراً جدّاً، وذلك تمجيداً للعيد ... إلخ“^(٢).

(ص ١٤٥-١٤٨)

وعن عيد الميلاد في حرّية البابا بنيامين الأوّل (٦٢٣-٦٦٢م) ال ٣٨ من باباوات الإسكندرية، يقصُّ علينا كتاب: ”سير البطارقة“ المنسوب للأبنا ساويرس بن المقفّع (حوالي ٩١٥-١٠٠٠م)، وعلى فم البابا بنيامين نفسه، ما يحكيه لتلميذه أغاثون (أغاثون) فيقول له:

”لما كنتُ في مدينتي، الإسكندرية، ووجدتُ زماناً بسلامة وخلاص من الاضطهاد، ومن محاربة المخالفين، وحضر يوم عيد ميلاد السيّد المسيح في الثامن والعشرين من كيهك، ونحن مجتمعين في بيعة السيّدة الطاهرة مريم أم الثور ... عملنا صلوات كثيرة بمحضر من جماعة الكهنة ومُقدّمي المدينة، وجميع الشعب الكبار والصغار، نُعيّد للسيّدة العذراء التي ولدت الله الكلمة المتجسّد بالحقيقة في العالم ... ونُعيّد فيه أيضاً للسيّد المسيح الابن الوحيد الذي تجسّد وصار إنساناً، وولده الطاهرة العذراء في بيت لحم يهوذا. مسيحٌ واحدٌ غير مفترق.“

فرأيتُ رهباناً قد دخلوا إلى وسط الشعب، ومنهم كهنة من برية القديس أبو مقار، وعليهم سكينه ووقار، كأهم من الملائكة. فلم يقدروا أن يصلوا إلى من كثرة الشعب، فتقدّم إلى أحد الكهنة وعرفني بدخولهم، فقلتُ له: ’قد رأيتهم‘، وأمرته فاستدعاهم، فلما دنوا مني، استعلمتُ منهم سبب تعبهم ووصولهم، فقالوا: ’جئنا إليك قاصدين نسأل أبوتك بمطمانونة من

١- ربما تكون أرقام الصفحات الواردة في هذا التنويه غير مطابقة للكتاب الذي بين يديك، ومراجعة نص الفقرة يسهّل عليك الأمر.

٢- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، الباب التاسع والتسعون، ص ٣١٠

لاحظ قارئ العزيز أنه بينما يكون الاحتفال بعيد الميلاد لمدة ثلاثة أيام خلال القرون من السابع إلى الحادي عشر للميلاد كما سبق أن ذكرتُ منذ قليل، يذكر ابن سباع في القرن الثالث عشر الميلادي أن الاحتفال بعيد الميلاد يمتد ليومين فقط. وأمّا سبب هذا الارتباك فتجده مشروحاً في الصفحات (١٤٦-١٤٨ حاشية رقم ٩).

أجل الله أن تتكلف مشقة الطريق إلى الدَّير في الجبل المقدَّس بوادي هبيب، مسكن أبونا أبو مقار الكبير لتكرس البيعة الجديدة التي بُنيت له . فأقاموا حتى كملنا العيد ذلك اليوم (٢٨ كيهك) وغده الذي هو تسعة وعشرين يوماً من كيهك، وثالثه ... وقدّمنا مسيرنا في اليوم الثَّاني من طوبة ...^(٣).

هذه القصَّة البديعة تُطلعنا على ملامح عيد الميلاد في كنيسة الإسكندرية في القرن السَّابع الميلادي، وازدحام الكنيسة بالشَّعب ملتفين حول باباهم، ليحتفلوا بالعيد بتقديم صلوات كثيرة.

ومن هذه القصَّة الشَّيقة القديمة، يتَّضح لنا أن عيد الميلاد يقع في يوم ٢٨ كيهك في السَّنوات القبطية الكبيسة^(٤)، أو في يوم ٢٩ كيهك في السَّنوات القبطية البسيطة. أي أننا نعيِّد عيد الميلاد ثلاث سنوات متتالية في يوم ٢٩ كيهك، تليها سنة نُعيِّد فيها يوم ٢٨ كيهك. وهذا التَّغْيُر في يوم عيد الميلاد في التَّقويم القبطي هو بسبب أنه منذ أن عُرف عيد الميلاد في كنيسة مصر في القرن الخامس الميلادي، فإنَّ يوم العيد يخضع للتَّقويم الغربي وليس للتَّقويم القبطي، أي أنه يقع دائماً في يوم ٢٥ ديسمبر^(٥). وإنَّ ما ذكره المترجم القبطي للدَّسقولية العربية بأنَّ عيد ميلاد الرَّب يكون في "التَّاسع والعشرين من كيهك، الشَّهر الرَّابع لأهل مصر"، هي إضافة من عنده لم تكن موجودة في الأصل الذي ينقل عنه^(٦)، وهو خطأ أربك الكثيرين. وأمَّا تصحيح ذلك، فهو أنَّ عيد ميلاد الرَّب يكون في التَّاسع والعشرين من كيهك، الشَّهر الرَّابع لأهل مصر، وذلك في السَّنوات القبطية البسيطة.

وبسبب خطأ المترجم القبطي والذي ورد في الدَّسقولية العربية والسَّابق الإشارة إليه، فقد استقر في وجدان الكنيسة القبطية أنَّ عيد الميلاد هو في اليَوْم التَّاسع والعشرين من كيهك. فإنَّ وقع العيد في الثَّامن والعشرين من كيهك، فتعود الكنيسة نُعيِّد مرَّةً أخرى في اليَوْم الثَّاني. ولإزالة عنوان قراءات يوم ٣٠ كيهك في قطمارس الكنيسة القبطية هو: "ثاني يوم عيد الميلاد المحيد"، وهي القراءات التي تُقال في هذا اليَوْم حتى لو كان هو يوم الأحد^(٧). وبحسب قوانين البابا كيرلس الثالث (ابن لفلق) (١٢٣٥-١٢٤٣م) نعرف أنَّ ثاني يوم الميلاد (٣٠ كيهك) يُعامل كطقس عيد الميلاد تماماً^(٨).

وإذا استوعب القارئ العزيز ما سبق أن ذكرته للتَّو، سوف يلاحظ قدراً من الارتباك فيما يذكره القس شمس الرِّئاسة ابن كبر (١٣٢٤م) قس كنيسة العذراء المعلقة^(٩)، حيث يقول:

"فأمَّا الميلاد الجديد المحيد، فإنه كما قيل كان ليلاً، آخر اليَوْم الخامس والعشرون (كذا) من كانون، الموافق للثَّامن والعشرين من كيهك. فرسمت الرُّسل المؤيِّدون بروح القُدُس في القوانين المقدَّسة، أن يُعيِّد في التَّاسع والعشرين من كيهك

3. C.F. Seybold, *Severus ben el-Mukaffa, Historia Patriarchorum Alexandrinorum* I, 1, in *Corpus scriptorum christianorum orientaliu* (CSCO), vol. 52, Scriptorum Arabici, Tomus 8, Louvain 1962, p. 113, 114.

٤- والتي توافق في حرية البابا بنيامين الأوَّل سنوات: ٣٤٠، ٣٤٤، ٣٤٨، ٣٥٢ للشَّهداء ... إلخ.

٥- وذلك حتى سنة ١٥٨٢م، وهي السَّنة التي جرى فيها التَّعديل الغريغوري للتَّقويم الميلادي، والذي أصبح اليَوْم يوافق يوم ٧ يناير طبقاً للتَّقويم اليولياني الذي تتبعه كنيسة الإسكندرية.

٦- انظر: الدُّكتور وليم سليمان قلادة، مرجع سابق، ص ٣٢٣، فقرة ٢، حاشية ٣

٧- بسبب أنه يكون الأحد الخامس من شهر كيهك، وليست له قراءات خاصة به تناسب عيد الميلاد. إذ أنَّ قطمارس الأحاد يعالج أربعة أحاد فقط من كلِّ شهر قبطي. أمَّا الأحد الأوَّل من شهر طوبة فقراءاته هي عن ظهور رؤيا ليوسف البار لكي يأخذ الصَّبي وأمه ويهرب إلى مصر. ومردَّات وألحان هذا الأحد أيضاً هي كطقس العيد نفسه. ولكن إن وقع عيد الختان في هذا الأحد الأوَّل من شهر طوبة فتُقرأ قراءات عيد الختان (٦ طوبة)، ويكون ذلك فقط حينما يقع عيد الميلاد يوم أحد.

8. O.H.E. KHS - Burmester, *The Canons of Cyril III Ibn Laklak 75th Patriarch of Alexandria A.D. 1235-1250*, dans *Bulletin de la société d'archéologie copte (BSAC)*, t. 12, 1947, p. 125.

أمَّا اليَوْم، فإنَّ الفترة الواقعة من عيد الميلاد إلى عيد الختان، أي إلى يوم ٦ طوبة، هي فترة فرح، وتُصلى بطقس الفرَّح. في حين أنَّ ابن كبر (١٣٢٤م) يذكر عن فترة الفرَّح التي تعقب عيد الميلاد فيقول: "... ويستمر لحن الفرَّح من يومه إلى يوم العماد متتابعاً". وهو نفس ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة (طقس ٧٣) بالدَّار البطريركية بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، والذي يقول في حديثه عن اليَوْم التَّاسع والعشرين من كيهك: "وطريقة الفرَّح مستعملة من هذه الليلة إلى آخر ثالث عشر طوبة خلا برامون الغطاس بطريق السنوي". وسأعود إلى شرح ذلك الأمر مرَّةً أخرى.

٩- لقد أُجريت تعديلاً في هذه الفقرة وفي الفقرتين السَّابقتين لها أيضاً، خلافاً لما ورد عن هذه الفقرات في الطبعة السَّابقة لهذا الكتاب. لذا لزم التَّنويه.

الشَّهْر الرَّابِع من شهور المِصرِيِّين، وهو في سنة الكبيس من سني القبط يوافق الخامس والعشرون من كانون^(١٠).

وتكشف قصة احتفال البابا بنيامين بعيد الميلاد في القرن السَّابع الميلادي، أنَّ السيِّدة العذراء القديسة مريم، تحتل في طقوس صلوات عيد الميلاد مكاناً واضحاً، وذلك في قول البابا: "... لنعيِّد للسيِّدة العذراء التي ولدت الله الكلمة المتجسِّد ...".

وتحتفل الكنيسة بعيد الميلاد برفع الذبيحة مساءً أي بعد منتصف اللَّيل، لأنَّ الأعياد السيِّديَّة الثلاثة الكُبرى - الميلاد والغطاس والقيامة - تحفظ التَّقليد القديم جدًّا، بإقامة القُدَّاس الإلهي ليلاً. وهو ما عرفناه من العالمة كليمنديس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م) الذي يقول:

[إنَّ الأسرار تُقام في أغلب الأوقات ليلاً، إشارة إلى مناسبة انطلاق النَّفس من الجسد التي تحدُّث ليلاً] (المتفرِّقات

٢٢:٤)^(١١).

١٠ - مخطوط رقم (عربي ٢٠٣) بالمكنبة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر، الباب ١٩، ورقة (٢١٥ ظ و ٢١٦ ج).

١١ - كنتُ قد ذكرتُ في الطَّبعة الأولى من هذا الكتاب، السَّبب في ذلك، وهو: "أنَّ ميلاد الرَّب حدث في اللَّيل بشهادة القديس لوقا الإنجيلي (لوقا ٢: ٨-١٠)، وهو الطُّقس الذي تعرفه كلُّ الكنائس الشَّرقيَّة". ولكن هذا التَّعليل لا يستطيع أن يبيح على سبب إقامة قُدَّاس عيد الغطاس ليلاً، كما أنه تفسير لا تسنده وثائق ليتورجيَّة.